# الفصل السابع

# التغيير وتحقيقه
# بين الشعارات والأفعال

فى إحدى الأساطير القديمة قال الراوى الأعمى للملك الغاضب :
إن الحق واضح أمامك .. لكنك لاتريد أن تراه ومادمت لاتريد ذلك فلن تراه ابدا ولو امسكته بيدك ودفعته أمام عينيك ! .

ولا أعرف هل تصلح هذه الاشارة .. كمقدمة لبدء حديث سياسى طويل عمن يرفضون رؤية مالا يريدون رؤيته والاعتراف به أم لا ، لكنى أشعر أنها مهما كانت بعيدة كل البعد عن مجال السياسة .. إلا أنها اكثر الأمثلة تعبيرا عن حالة سياسية معينة قائمة الآن .. لايملك المرء أمامها إلا أن يستعير كلمات الراوى الأعمى !! .

فالبعض مثلا مستمسكا بألا يصدق الا مايخدم رؤيته السياسية وأهدافه مازال يرفع شعار المطالبة بالتغيير ، الذى رفعه لأول مرة فى الأسابيع الأولى من تولى حسنى مبارك للرئاسة فى مصر .

ولأن شعار التغيير .. شعار جذاب يداعب أحلام الجماهير التى تحلم دائما بغد أفضل ، فالبعض مازال يتمسك به مهدرا بذلك حقائق موضوعية واضحة كالشمس .. وجهدا بشريا يبذل كل يوم لعلاج الأخطاء ورسم ملامح الغد الأفضل .

ولنبدأ بمناقشة هادئة لشعار التغيير بصفة عامة ، ثم نحاول أن

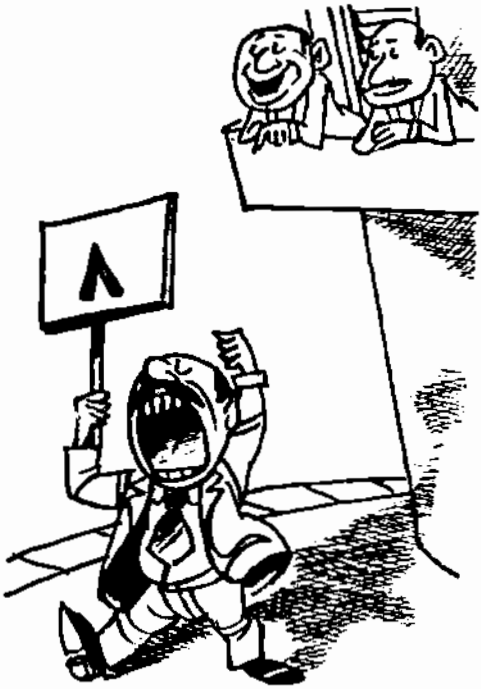


.. فيه تغيير ح يحصل .. أنا
شايف الاحتياطى بيسخّن ...

نطبقه على الواقع المصرى خلال الشهور الثلاثين الماضية ، وهى الفترة التى تحمل خلالها الرئيس حسنى مبارك أمانة المسئولية عن شعبه وبلاده .

ان التغيير بداية طريق التطور - لاجدال فى ضرورته ولا فى أهميته المتجددة دائما .. وهو يتطلب دائما إحلال سياسات ومناهج حكم وفكر محل سياسات ومناهج أخرى .. كما يتطلب وفقا للحاجة احلال اشخاص محل أشخاص آخرين .

فإذا رجعنا بالذاكرة إلى صورة الواقع السياسى والاجتماعى والاقتصادى لمصر فى الشهور الأخيرة من عام ١٩٨١ ، ووضعناها موضع المقارنة مع صورة الواقع السياسى والاقتصادى والاجتماعى لمصر الآن ، سوف يتضح على الفور لمن يحكم العقل والمنطق .. ولايغلب أهواءه عليها ، ان مصر قد شهدت تغيرات جوهرية وشاملة فى كل او معظم اوجه الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، لكن هذا التغيير قد تم وفقا لمنهج يرفض أسلوب الصدمات الكهربائية .. والتحولات المفاجئة ويؤمن بالتطور التدريجى الواثق الخطى حفاظا على البنيان من التصدع وحرصا على استقراره .

**مبارك .. ومنهج التغيير المدروس :**

فالرئيس مبارك قد اعتمد منذ بداية فترة رئاسته منهجا خاصا للتغيير يتفق إلى حد كبير مع فكره وشخصيته وتكوينه الثقافى ، وهو مايمكن أن نسميه بحق بمنهج التغيير المدروس ..

فلأن الرجل يحمل داخله قدرا كبيرا من النفور من المظهرية وسياسة الإثارة .. واتخاذ المواقف الدراماتيكية التى تثير حولها الاعجاب المفاجىء ثم لا يلبث دخانها أن ينقشع عن لاشىء .. وربما عن خطوة

للخلف بدلا من خطوة للأمام ..

ولأن شخصية الرجل تتسم بقدر كبير من العقلانية الواعية فهو يميل بطبعه لاتخاذ الخطوات العملية لحل المشاكل .. واتخاذ المواقف ، أكثر مما يميل لاعلان القرارات المدوية إذا لم تكن تخدم الهدف الاسمى وهو حل المشاكل .. وعلاج الأخطاء .

ولأن الرجل هو بالتحديد رجل أفعال لا رجل أقوال .. فهو يعطى الكثير من الوقت لدراسة المشاكل مؤمنا بأهمية التخصص .. ومسئولية كبار المتخصصين عنها وبعدم جدوى تجاوزهم للخروج بآراء غير متخصصة أو لادعاء الإلمام بكل شيء والتعمق فى فهم كل شيء .. وهو ما يستحيل عمليا تحقيقه ولو أدعى البعض غير ذلك .

ولأن الرجل كذلك ، فلقد اعتمد منهجه للتغيير مؤمنا بأن تغيير الأسلوب يأتى فى الأهمية قبل تغيير الأشخاص ، وبأن تغيير الهدف الذى تسعى إليه الوحدة أو المؤسسة أجدى وأهم من تغيير الأشخاص .

واستهداء بهذا المنهج العملى الصارم الذى يمكن أن نقول إنه يسعى لاحداث التغيير المدروس ببطء ولكن باصرار ، فلقد أجرى الرئيس حسنى مبارك تغييرات واسعة النطاق وبعيدة الأثر فى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى مصر خلال الفترة القادمة .

وسنحاول فى هذا الحديث الاشارة إلى بعض مظاهرها على الساحتين الداخلية والخارجية .

## فى الساحة الداخلية ..

### التغيير دون صدمات

فعلى الساحة الداخلية نستطيع أن نحدد بعض مظاهر التغيير فى هذه المؤشرات .

بحكمة بالغة استطاع مبارك أن يقود السفينة وسط الأنواء التى خلفتها أعاصير خريف عام ١٩٨١ وكشفت معالجته للقضية الوحدة الوطنية عن فهم عميق للشخصية المصرية فخمدت نيران الفتنة .. واندثرت بثور الصراع .. واختفت نغمة التطرف وتأكد استقرار المجتمع وسلامة بنيانه .

وقد تم تحقيق كل هذه الأهداف الكبرى دون اللجوء إلى أية قرارات تحمل فى طياتها وطأة العنف بل على العكس فلقد تحقق ذلك جنبا إلى جنب مع الافراج عن المعتقلين والسماح بعودة الصحف الحزبية ومع اطلاق الحرية الكاملة للمعارضة فى ممارسة دورها بحرية تامة .

فأكدت خطواته على طريق إعادة الاستقرار والسلام الاجتماعى والأمان إلى مصر أنه كما يقول المثل الانجليزى القديم، بالمهارة – لابالعنف – تسير السفينة .

أليس هذا هو التغيير ؟

□□ لايستطيع منصف أن ينكر أن الرئيس مبارك قد نجح فى خلق مناخ من الثقة فى قضية الديمقراطية وسيادة القانون فى مصر وفى صدق الايمان بهما مهما تصادمت إرادة الحكومة والحزب الحاكم مع مايقضى به القانون ومع ماتفرضه الديمقراطية . فأثبت بذلك أن الايمان الحقيقى بالديمقراطية هو أن نؤمن بحق الرأى الآخر فى التعبير عن نفسه وفى السعى بالطرق المشروعة لاكتساب تأييد الشعب له وفى السعى للمشاركة فى الحكم أو تولى مسئوليته الكاملة عن طريق الانتخابات ، حتى لو لم نؤمن بصحة هذا الرأى الآخر ، فقد لانؤمن بالفعل بصحته لكننا نؤمن بحقه فى التعبير عن نفسه وفى الدعوة له . ومما يستحق الاشارة إليه فى هذا المجال أن الرئيس مبارك كما لاحظ كثير من المراقبين ليس من هواة « التفلسف » فى موضوع الديمقراطية .. ولا من هواة الحديث الرنان

والطنان عنها فى كل مناسبة ، فهو كما قلت من قبل ليس من جيل حكام العالم الثالث الذين يرفعون أكثر شعارات الديمقراطية توهجا وبريقا ويمارسون أكثر صور الحكم بعدا عنها واغراقا فى الديكتاتورية ، ومعياره الأساسى فى الفصل فى كل قضايا الديمقراطية هو أحكام الدستور ونصوص القانون ، فإذا قضينا حتى بغير مايتصوره الأفضل ، سلم بما يقضى الدستور والقانون وذلل الصعاب أمام تنفيذه بروح ليبرالية حقيقية لاتعلن عن نفسها بالضجيج .

أليس هذا هو التغيير ؟

□□ فى عهد الرئيس مبارك تأكد بما لايدع مجالا للشك والمكابرة استقلال القضاء وممارسته لدوره الكامل بلا أى تدخل من جانب الحكم فى رؤاه وأحكامه واعتمد الرئيس مبارك بحق سياسة إحالة كل القضايا السياسية الخلافية إلى القضاء ليقول كلمته فيها .

مع ترسيخ مفهوم الاستعداد لدى الحكومة والحزب الحاكم للقبول بحكم القضاء مهما تعارض مع الاعتبارات التى تراها الحكومة أو مع مواقف سابقة لها ، وتأكد ذلك فى قضايا كبرى كقضية عودة الوفد وعودة مجلس نقابة المحامين المنتخب ورفع العزل السياسى عن بعض الذين فرض عليهم فى استفتاءات سابقة ، وقيام حزب الأمة .. وغيرها ، فأصبح القضاء المصرى بذلك هو حصن المواطنين ضد أية قرارات سيادية لايرى بعضهم صوابها .

أليس هذا هو التغيير ؟

خلال الفترة الماضية جرت عملية واسعة لترشيد السياسات الاقتصادية والاجتماعية تمت كلها بنفس المنهج المدروس الواثق الخطى وبلا انقلابات مفاجئة فى أى مجال من المجالات .. من صورها :

□ □ ترشيد سياسة الانفتاح الاقتصادى بما يحقق الهدف الأساسى

منها وهو المساهمة فى بناء القاعدة الصناعية وتوفير احتياجات المواطنين الأساسية .

فبدأ تحويل الانفتاح إلى انتفاح إنتاجى يقيم الصناعات وينتج احتياجات الشعب ولايساهم فى زيادة التضخم .. ولا فى زيادة الفوارق الطبقية ، وكرست التيسيرات للمشروعات الصناعية والزراعية ، وحورب الفساد بشراسة لم يسبق لها مثيل وأطيح بكل رموزه وحورب النشاط الطفيلى بكل صوره ، وتأكد للجميع أنه لاحصانة لأحد من القانون .. ولاحماية لمنحرف ، مهما كان شأنه . وتأكدت قيم الطهارة والنزاهة فى أسلوب الحكم .

أليس هذا هو التغيير ؟

تأكد لكل ذى عينين خلال الفترة الماضية أن نظام الحكم فى عهد الرئيس مبارك يستهدف صالح الجماهير العريضة من الشعب وأنه يؤمن بسياسة الأخذ من القادر لاعطاء غير القادر ، وبضرورة تذويب الفوارق الاجتماعية وبمسئولية الحكم الاجتماعية عن الجماهير العريضة ، لذلك فقد كرست سياسة الابقاء على دعم السلع أو مايقابله لصالح محدودى الدخل . وسياسة زيادة الأجور والحوافز بنسب عالية لنفس هذه الفئات ، وزيادة المعاشات من حين لآخر . وتوسيع مظلة التأمينات ، ومنح مكافآت نهاية الخدمة ، والعودة لخطط بناء المساكن الشعبية ، وقصرها على محدودى الدخل دون غيرهم ، وأكد ذلك للجميع أن فلسفة الحكم تستهدف تحقيق العدالة الاجتماعية التى خفت صوتها فى حمى أخطاء الانفتاح . وأن العدالة الاجتماعية هى هدف أساسى من أهداف الحكم ومهمة مقدسة من أهم مهامه .

أليس هذا هو التغيير ؟

□□ تقدمت المشكلة الاقتصادية كل المشاكل الأخرى فى فكر واهتمام

وأولويات الرئيس مبارك ، فتقدمت بذلك من الخلفية إلى المقدمة وتركزت الجهود حولها .. وأصبحت لها الأولوية القصوى فى عمل ونشاط الرئيس سواء فى الداخل أو الخارج ، ودرست الدراسات المستفيضة وتحددت اجراءات مواجهتها .. وتبلورت فى خطة خمسية متكاملة منحت لها كل الامكانيات .. وذللت من أمامها كل الصعاب وأصبحت الخطة هى دليل عمل لايمس إلى حل المشاكل وعلاج الاخطاء وتخفيف المعاناة .

وبواقعية شديدة يرفض الرئيس مبارك الخروج على أولويات الخطة استجابة لأية ضغوط .. أو استجداء للتأييد .. أو طلبا للشعبية مؤمنا أن المسكنات لاتحل المشاكل وإنما تؤجل انفجارها وتزيد من أخطارها .

وبدأب شديد يحرص الرئيس مبارك على متابعة تنفيذ مراحل الخطة بالمتابعة العلمية .. وبالزيارات الميدانية ، الفاعلية والانضباط فى التنفيذ هى معياره الوحيد لتقييم أى عمل .. وهى مقياس نجاح أى مسئول إدارى عن العمل أمامه . يطالب الجميع بالعمل وبالانتاج وبالحيوية ، ويقدم للجميع القدوة فيما يطالب به الآخرين ، ويؤكد بأن الاستقرار مطلب اساسى للانجاز والانتاج والعمل لذلك يحرص على توفير الاستقرار للوحدات الانتاجية والادارية . فى عهده تأكد للجميع أن مصر قد عادت إلى الايمان بأهل الخبرة والتخصص والكفاءة . ولاتؤمن بجدوى الاعتماد على أهل الثقة فى إدارة المؤسسات والوحدات والمواقع الانتاجية ، فالجميع عنده هم أهل ثقة مادموا مصريين ومادامو أكفاء .. ومادامو قادرين على العطاء ، وليس فى مصر طبقة حاكمة توزع عليها المسئوليات وتتوارثها جيلا بعد جيل ، فالشعب هو المالك الحقيقى لكل مايرتفع فوق أرض مصر من مؤسسات ووحدات ومواقع عمل ، ومن حق الجميع أن يطمحوا للوصول إلى المسئولية عنها بشرط الخبرة والكفاءة والعطاء المتميز .

ولأن الجميع متساوون أمام القانون فلقد شهد مبارك حرصا شديدا على تطبيق قانون الاحالة إلى المعاش بعد سن الستين لافساح المجال للقيادات الشابة ولتجديد دماء المؤسسات والوحدات وتم تطبيق هذا القرار على الجميع بلا استثناء مهما كانت حظوتهم ومهما كانت خطورة مواقعهم القيادية . والأهم من ذلك أن اختيار خلفائهم قد شهد تحولا جذريا هاما قد لايلفت الانظار لكنه شديد الأهمية والخطورة فلقد اعتمدت سياسة اختيار القيادات للمواقع المختلفة من أبناء هذه المواقع نفسها . ومن بين الكفاءات البارزة فيها ليتأكد للجميع أن من حق المنتج أن يطمح للوصول إلى أرقى المناصب بالجهد والعرق والاخلاص والعطاء . وليتأكد للجميع ان سياسة الهبوط على المناصب الكبرى بالمظلة من خارج الوحدة الادارية لم تعد قائمة لخطورتها المدمرة على كفاءة العمل وروح العطاء ولكى لايصاب العاملون بالاحباط لاحساسهم بأن الطريق مسدود أمامهم مهما أخلصوا للعمل ومهما قدموا من جهد ، فليست هناك كما قلت من قبل طبقة حاكمة تحتكر لنفسها المناصب والمواقع القيادية .. وإنما هى حق للجميع من أبناء مصر .

أليس هذا هو التغيير ؟

□□ اعتمد الرئيس مبارك خلال فترة تحمله لأمانة المسئولية سياسة مصارحة الجماهير بالحقائق مهما كانت مؤلمة ، وفى وقت كان يحتاج فيه إلى الشعبية فى بداية ولايته للجمهورية ، فلم يختر الطريق السهل .. ولاطريق مداعبة أحلام الجماهير بأحلام الرخاء السريع ولا بالمزايدات – وإنما اختار الطريق الصعب فأعلن منذ اللحظة الأولى ومازال يعلن كل يوم أن حل المشاكل الكبرى لايتم بين يوم وليلة .. وانه لايتم بجهد الحكومة وحدها .. وإنما بجهد الجميع وأن الجميع مطالبون

بالعمل والانتاج والعرق لكى نرفع معدلات الأداء ونزيد الانتاج ونواجه المشاكل .

ولايزال على اصراره بخوض معركة التنمية بالعرق والجهد والعطاء لكى نحقق النصر فى المعركة رافضا أن يخدعنا بالأوهام .. وأن يخدرنا بالأحلام الوردية .

فأليس هذا هو التغيير ؟

## فى الساحة الخارجية :
## كيف تحولت الصورة ؟!

وعلى الساحة الخارجية .. أحقا لم يتغير شىء فى موقف مصر من العالم أو فى موقف العالم من مصر منذ تولى الرئيس مبارك قيادة السفينة ؟ وبالتالى فإننا مطالبون أيضا بالتغيير فى الخارج كما نحن مطالبون به فى الداخل .

لكى نحدد الاجابة لابد أولا من أن نحاول استرجاع الصورة العامة لعلاقات مصر الخارجية ولموقف العالم من مصر عشية تسلم الرئيس مبارك لأمانة المسئولية .. لنستطيع أن نحدد إذا ما كانت سياسات مبارك الخارجية هى نفس السياسات ، وما إذا كانت التوجهات السياسية هى نفس التوجهات أم لا .

عشية تسلم مبارك لأمانة المسئولية كانت صورة مصر فى عيون العالم على النحو التالى :

فى الدائرة العربية .. مصر متهمة بالردة وبالتخلى عن القضايا العربية مقابل السلام مع اسرائيل ، ومتهمة باحراج أكبر القوى العربية وأكثرها قدرة على التصدى للاحلام التوسعية والتدخل الخارجى .. من رصيد القوة العربية .. وباخراج نفسها من نظام الأمن العربى الذى يمثله

ميثاق الجامعة العربية واتفاقية الضمان الجماعى ، إلى نظام الشرق الأوسط الذى تحدد أولوياته الولايات المتحدة ويجعل من الخطر السوفيتى الخطر الأساسى الذى يهدد المنطقة العربية وتتضاءل الى جواره كافة الأخطار .

ومصر – عشية استلام مبارك للسلطة – مقطوعة الصلات الرسمية وغير الرسمية مع معظم الدول العربية .. ومادة أساسية للهجوم والتنديد والادانة فى كل المؤتمرات العربية الرسمية والشعبية .. تفتح كل الجلسات الرسمية والشعبية أعمالها بادانة مصر وشجب سياساتها .. وتنافس « الثوريون » والمحافظون فى العالم فى اتخاذ أقصى المواقف المتطرفة ضدها ناعين عليها « خيانتها » للقضية العربية وتخليها عن دورها القيادى فى المجموعة ووراء الهجوم تختلط النوايا الطيبة بالنوايا الشريرة ، والحرص على القضية بالحرص على النفس .. والدفاع عن شعب مصر .. بأحلام الزعامة والوراثة والخلافة .

وهى على وجه الخصوص الموضوع الأساسى للهجوم والتنديد فى كل المؤتمرات الفلسطينية التى تعقد ، وفى الاجتماعات السياسية الشعبية التى تقام .. وفى المسيرات التى تنظم فى المنطقة العربية من الخليج إلى المحيط .

مصر مطاردة – اذا صح التعبير – ومدانة .. بل ومرفوضة فى الساحة الاسلامية ، وعضويتها فى المؤتمر الاسلامى الذى وضعت هى لبنته الاولى مجمدة وبيانات الهجوم عليها تتلى فى الجلسات الافتتاحية للمؤتمر كطقس من طقوس الافتتاح فى كل مؤتمر يعقد .

مصر .. فى عشية استلام مبارك للسلطة اذا كنا قد نسينا .. « موصومة » داخل كتلة عدم الانحياز التى كانت إحدى الدول الثلاث التى أسستها وأعلنت عن وجودها للعالم .. ومتهمة بالتخلى عن سياسة

عدم الانحياز ، وبالانحياز والخضوع لاحدى القوتين الاعظم التى قامت الحركة لاحداث التوازن العالمى بينهما وجلسات مؤتمرات عدم الانحياز تشهد كل دورة محاولات شرسة لاخراج مصر من المنظمة .

ومصر فى هذه المرحلة الحرجة من تاريخها .. محاصرة فى داخل منظمة الامم المتحدة التى كانت من أوائل الدول التى حضرت مؤتمرها التأسيسى الأول فى سان فرانسيسكو فى الأربعينات ، تتعرض فى كل جلسات الجمعية العامة لحملات الهجوم وبيانات الشجب والادانة ..

وفى كل مؤتمرات الاتحادات العربية والمؤتمرات - الافريقية - الآسيوية ومؤتمرات مناصرة الشعب الفلسطينى التى تعقد فى أى مكان من خريطة العالم .. مصر هى حائط الرماية الذى تسدد اليه السهام بالحق وبالباطل وبسوء النية أو بحسن النية ، وبالقصد او بالجهالة .

وفى كلمات محددة كانت مصر فى عشية مرحلة مبارك .. جريحة على كل أو معظم الجبهات تنزف من كبريائها ومكانتها ودورها دماء ثخينة .

فهل تغيرت هذه الصورة الآن .. أم لم تتغير ؟

## مصر الآن .. فى عيون العالم ..

ولكى لانفقد معالم الطريق سأبدأ أولا بأوضاع مصر الآن فى خريطة المنطقة العربية .

ففى خلال الشهور الثلاثين الاخيرة .. ومن واقع ما وضح للعالم كله من سياسات مبارك وتوجهاته الأساسية وممارساته العملية فقد شهدت سياسة مصر الخارجية تحولات أساسية يمكن تحديد بعض ملامحها على الوجه التالى :

. . تأكد للمخلصين فى العالم العربى أن مصر بقيادة مبارك لم ولن تتخلى عن التزاماتها العربية ولا عن دورها القائد فى الدفاع عن المنطقة

ضد كل الاخطار الخارجية ، وتأكد للجميع أن قوة مصر الدفاعية هى جزء أساسى من رصيد القدرة العربية .

فمصر لم تقبل التفريط فى حق عربى .. ولم تسكت عن عدوان تعرضت له دولة عربية ، وكان صوتها هو أعلى الأصوات التى أدانت الغزو الاسرائيلى للبنان . وسحبت سفيرها من تل أبيب احتجاجا عليه ولم تخضع لأى ضغوط مقابل اعادته الى موقعه ... حتى الآن ، مصرة على عدم عودته الا اذا انسحبت اسرائيل من لبنان .

وأعلنت مصر فى مقولة واضحة ان أوراق القضية الفلسطينية هى فى ايدى العرب بنسبة ١٠٠ ٪ ، وليست فى ايدى اية اطراف خارجية وان دعم القدرة العربية هو الطريق السليم لرد العدوان وانتزاع الحقوق .

أما فى ساحة العمل الفلسطينى فلقد اثبتت ممارسات مبارك وتوجهاته ان مصر لم تقبل التفريط فى أى من الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى وأوقفت محادثات الحكم الذاتى ، عندما أصرت اسرائيل على اجرائها فى القدس وتمسكت بمواقفها المتعنته التى تفرغ الحكم الذاتى من أى مضمون حقيقى ، ومازالت مصر على موقفها فى ذلك ، ايمانا منها بأن أى مباحثات حول مستقبل الشعب الفلسطينى لابد أن يشارك فيها الفلسطينيون ، وحثت مصر الولايات المتحدة على لسان مبارك وفى واشنطون على بدء حوار مع منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل الوحيد للشعب الفلسطينى ، وحثت الاردن والمنظمة على اجراء الحوار للاتفاق على صيغة تعيد للشعب الفلسطينى حقوقه ، ويقبل بها الفلسطينيون ، ووقفت ضد اخراج الفدائيين الفلسطينيين من بيروت وتشتيتهم بين الدول العربية ، ووقفت ضد القتال بين فصائل المقاومة فى طرابلس وضد التدخلات الخارجية فى العمل الفلسطينى .. والقرار الفلسطينى .. ومساندة القيادة الشرعية لمنظمة التحرير ضد محاولات

الاخضاع والتصفية وثبت للجميع .. وسط نيران الجحيم ..ان مصر المتهمة بالتخلى عن حقوق الشعب الفلسطينى .. هى الدولة التى لا تطلق النار على الشعب الفلسطينى ولا تريق دماءهم .. ولا تحاصر قياداته بالطائرات والدبابات .. ولا تقتل عشرات الالوف منهم . بل هى الدولة التى تشارك بحريتها وطيرانها فى تأمين خروج المقاتلين الفلسطينيين من طرابلس وتبسط حمايتها عليهم الى أن يصلوا الى مستقرهم الجديد باليمن الشمالية .

وبعد ثلاثين شهرا من تحمل أمانة المسئولية نستطيع أن نلمس بعض المتغيرات الهامة فى موقف مصر فى الساحة العربية منها على سبيل المثال لا الحصر :

□□ عادت مصر عمليا الى ممارسة دورها القيادى فى العالم العربى الذى لا يمكن تجاهله .. واصبح صوت مصر فى القضايا العربية هو صوت الضمير العربى والعقل العربى ..

لا صوت المزايدات الطفولية ولا الشعارات الجوفاء ، وكان موقفها من دعم العراق فى صموده هو التعبير العملى عن التزامات مصر العربية كما كانت حمايتها للمقاتلين الفلسطينيين هى صورة أخرى من ممارستها لهذه الالتزامات . أصبحت القاهرة هى العاصمة التى يزورها ياسر عرفات ويشيد بقيادتها ودورها فى حماية الفلسطينيين .. ويؤمن بصدق نواياها وبحرصها على الحق الفلسطينى ويعلن ضرورة التنسيق مع مصر لاستعادة الحقوق .

□□ اكتسبت مصر بتوجهاتها السياسية الأمينة على الحق العربى وعلى المصلحة القومية العليا للأمة العربية .. الاحترام اللائق بدورها ومكانتها وقيادتها فى الساحة العربية كلها وعادت قنوات الاتصال الشعبى والرسمى مع كل الدول العربية ما عدا دولة أو اثنين .. ،

وأصبحت أكثر الدول مزايدة فى الماضى على الهجوم على مصر أكثرها اعترافا بدور مصر وصحة توجهاتها .. كما أصبحت أكثر الدول رفضا لمصر وشجبا لسياساتها .. أكثرها حرصا على الاتصال بالقيادة السياسية لمصر وطلبا لتأييدها فى مواقفها .

وعلى حين أصدر الرئيس مبارك فى بداية استلامه للأمانة قرارا بوقف الحملات الاعلامية ضد الدول العربية ، فلقد استمرت هذه الحملات من الجانب الآخر فى البداية ، ثم لم تلبث على ضوء الممارسات السليمة للقيادة السياسية فى مصر .. ان خفت صوتها تدريجيا .. ثم تلاشى من كل الساحة العربية فيما عدا دولة أو دولتين تشنان الحملات الاعلامية على معظم دول العالم بلا استثناء ما عدا الاتحاد السوفيتى وحده .

واختفت « مادة » الهجوم على مصر من غالبية المجلات والصحف العربية الصادقة ومن كل أو معظم المؤتمرات الشعبية والسياسية والرسمية التى تعقد فى المنطقة العربية من المحيط الى الخليج .. ومن تصريحات كبار المسئولين العرب والقيادات السياسية العربية والفلسطينية .. وبدلا من افتتاح كل جلسات الحوار والمناقشة بالوقوف على حائط مصر لتسديد السهام والشجب والتنديد .. أصبحت المطالبة بعودة مصر والاشادة بتوجهاتها .. والاعتراف بدورها القيادى هو القاسم المشترك الاعظم فى تصريحات معظم رؤساء الدول العربية وكل أو معظم بيانات الافتتاح والاختتام للمؤتمرات العربية .

اليس هذا هو التغيير ؟.

أننى لا أريد أن أطيل للتدليل على صحة ما أقول .. فما أقوله يعرفه الجميع وبخاصة من اتيحت لهم فرصة المشاركة فى أعمال المؤتمرات العربية خلال السنوات الماضية .. لكنه لا بأس مع ذلك من ايراد بعض الأمثلة لما كتبته الصحف والمجلات العربية عن مصر وعن مبارك خلال

الفترة الماضية لنعرف الى أى حد تغيرت نغمة الحديث عن مصر فى هذه الصحف والمجلات التى أراقت أنهارا من الحبر الاسود فى الهجوم عليها من قبل ، وسأكتفى هنا بعدة نماذج منها .

صحيفة العرب اللندنية : ان الموقف الشجاع والواضح للرئيس مبارك الذى يعمل بثقة وحكمة وهدوء دون جلبة أو تطبيل اعلامى يوضح تماما أن مصر تسترد اليوم مكانتها بثبات واطراد متزايدين كل يوم .

صحيفة القبس الكويتية :

مبارك هو سيف القانون القاطع ، وهذه الصفة لم تتكون لديه مع توليه السلطة وانما هى صفة ملازمة له منذ قديم وتدخل فى تكوين شخصيته ، وهو يكره التزييف والنفاق والمبالغة والتطرف ، ويتصف سلوكه دائما بالصدق والواقعية وبأنه انسان طاهر اليد صلب أمام أى نوع من أنواع الغواية أو الاغراء .

مجلة « المجلة » السعودية :

لم تشهد مصر منذ ثلاثين سنة ديموقراطية كالتى تسود فيها الآن وقد تمكن الرئيس مبارك من تحقيق الكثير فى هذا المجال خلال فترة حكمه .

أما اذا اردنا شهادة أخرى لا يمكن تكذيبها لانها تأتى من الجانب الآخر الذى لا تسعده بالتأكيد عودة العلاقات المصرية العربية فيمكن الاشارة الى ما كتبته صحيفة جويش مانثلى الامريكية الصهيونية : « يتزايد الاعجاب بمبارك فى العالم العربى بعد أن أوقف الحملات ضد الدول العربية وظهر كواحد من أكبر المدافعين عن الشعب الفلسطينى » .

وهذا قليل من كثير أصبحنا نقرأه كل يوم فى الصحافة العربية .. وأصبحنا نرى صورة الرئيس المصرى على غلاف مجلة عربية فلا نتوجس خيفة أن تكون الصورة اشارة الى هجوم ضار على مصر وعلى

قيادتها يشعر معه المصريون فى الخارج بالاحباط والضيق والمهانة .. وانما أصبحنا نتوقع أن تكون الصورة مقدمة للاشادة بمصر وتوجهاتها القومية وادائها لالتزاماتها العربية ومطالبة بمد الأيدى اليها ..

اليس هذا هو التغيير ؟

وعلى الساحة الاسلامية ماذا جرى .

ان الجميع يعرفون ماذا جرى وكيف أدت توجهات القيادة السياسية الى استعادة مصر لعضويتها فى المؤتمر الاسلامى وسط مظاهرة اسلامية عالمية لم يسبق لها مثيل .. تبارى خلالها رؤساء الدول فى الاشادة بمصر وبقيادة مصر وفى التصدى للمحاولات الطفولية لاعاقة عودة مصر .. ويعرفون أيضا أن مصر قد استقطبت قلوب العالم الاسلامى قبل أن تستقطب أصوات ممثليه فى المؤتمر ، وان عودتها كانت تسجيلا للمتغيرات التى طرات على وضع مصر وصورتها فى العالم الاسلامى .

اليس هذا هو التغيير ؟

وفى ساحة دول عدم الانحياز حدث نفس التطور ..

فلقد اثبتت ممارسات مبارك وتوجهاته أن مصر لا تقبل المساس بإرادتها السياسية ، وانها ترفض أن تكون جزءا من استراتيجية أية قوة عظمى فى المنطقة ، واثبتت بما لايدع مجالا للشك « ان استقلال ارادتها ورفضها لوجود أية قواعد أجنبية على أرضها ...

ورفضها لاستخدام أرضها كقاعدة للعدوان على أية دولة عربية أو افريقية أو أسيوية ، هى كلها حقائق لا تقبل الجدل ، فاستعادت مصر مكانتها فى كتلة دول عدم الانحياز كاحدى الدول الثلاث المؤسسة للحركة .. ومارست دورها فى مؤتمرات عدم الانحياز بفاعلية وقوة ، وحين شارك الرئيس مبارك فى مؤتمر عدم الانحياز بنيودلهى اثبتت اتصالاته مع رؤساء دول المجموعة مصداقية مصر فى انتمائها الى كتلة

عدم الانحياز بالرغم من صداقتها للولايات المتحدة ، وأقر الجميع بسلامة موقف مصر وحرصها على دعم الحركة كطرف مهدئ للصراعات الدولية ..

وفى هذا المجال تكفى الاشارة الى ما أعلنه مرارا رؤساء دول عدم الانحياز من تأييدهم لمصر .. وما أكدته صحف دول عدم الانحياز من الاعتراف بدورها الهام فى الحركة ، وكمثال فقط لذلك يمكن الاكتفاء بعدة سطور مما نشرته صحيفة بوليتيكا اليوغسلافية « مبارك هو رسول سلام قائم على العدل للشرق الأوسط وقد قوبلت أراؤه وأفكاره بالترحيب من رؤساء وممثلى دول العالم وبخاصة دول عدم الانحياز » كما يمكن الاشارة أيضا الى ما نشرته صحيفة أساهى اليابانية واسعة الانتشار حين قالت :

« مبارك أعاد مصر بكل وضوح الى عالم عدم الانحياز وقضى على الفساد واعاد الانضباط وقام ببناء الدولة الديموقراطية » .

أليس هذا هو التغيير ؟.

أما فى الساحة الدولية التى شهدت مؤتمراتها الكثير من الهجوم والمطاعن على مصر لفترة طويلة .. فلقد توجت مصر بروزها من جديد فى المجتمع الدولى وعودة شخصيتها الدولية التى تواجه بالاحترام لا بالهجوم بحصولها على مقعدها فى مجلس الأمن ممثلة لافريقيا عن دول الشمال الافريقى ، وقد أكد نجاح مصر فى الفوز بتمثيل افريقيا فى المنظمة الدولية ان مرحلة ملاحقة مصر فى كل الساحات الدولية قد انتهى الى غير رجعة وان عهد سماع ممثلى مصر فى المنظمات الدولية لأطروحات الهجوم على مصر قد انتهى .. وان مرحلة جديدة قد بدأت تماما استردت مصر خلالها احترام العالم لتوجهاتها السياسية ولشخصيتها الدولية كدولة عريقة من أقدم دول العالم .

أليس هذا هو التغيير ؟.

وفى أفريقيا أيضًا حدثت متغيرات هامة ..

فلقد أكدت مصر دورها الهام فى أفريقيا .. وحددت لنفسها توجهات الدور فى أن تكون مصر طرفا فاعلا فى تهدئة الصراعات بين الأطراف الأفريقية .. ونقطة التقاء لحل النزاعات لا لإذكائها كما أكدت مصر رؤيتها فى ضرورة إبعاد أفريقيا عن ساحة الاستقطاب الدولى والصراعات التى تترجم صراع القوتين الأعظم على أرض أفريقيا مؤمنة بأن هذه الصراعات الداخلية تعرقل مهمة التنمية وتعوق أفريقيا عن التقدم وحل مشكلات شعوبها ، وفى هذا المجال فلقد أعلنت مصر مرارا مطالبتها للأطراف المشتركة بحل النزاعات عن طريق المفاوضات وبرفض أسلوب الغزو الخارجى لأراضى أية دولة .. وبرفض التدخل الخارجى فى شئون الدول الأفريقية ، وترجمت مصر سياستها الأفريقية فى رفض التدخل فى أى نزاع عسكرى فى أفريقيا كرفض التدخل فى تشاد وفى إعلان مصر مرارا أنها لا تنوى ولا تقبل بأن تهاجم أية دولة عربية أو أفريقية ، كما ترجمتها فى جهودها السياسية المكثفة لحل النزاع الصومالى الأثيوبى والنزاع الأثيوبى السودانى ، وفى تشاور مصر مع المغرب حول قضية الصحراء وفى جهودها المكثفة للحفاظ على منظمة الوحدة الأفريقية وفى وجودها السياسى المؤثر فى الساحة الأفريقية وبعد أن كانت بعض دول الرفض قد أغدقت الكثير على بعض الدول الأفريقية وجرتها بالضغط والإغراء إلى معاداة مصر ، نجحت مصر فى استرداد مكانتها واحترامها وتأثيرها فى أفريقيا ، وكانت رحلة مبارك إلى ٧ دول أفريقية منذ أسابيع والترحيب الحار الذى قوبل به فيها جميعا هى التعبير الحقيقى عن نجاح سياسة مصر الأفريقية فى هذه المرحلة .

فأليس هذا هو التغيير ؟

وعلى الساحة الأفرو الآسيوية نستطيع أن نلمس ملامح هذه المتغيرات الإيجابية .

وفى أوروبا نستطيع أن نلمس الكثير منها والمبادرة المصرية الفرنسية لإعادة حقوق الشعب الفلسطينى نموذج من نماذجها وفى العالم الثالث نستطيع أن نلمس المزيد والمزيد من هذه العلامات الإيجابية .

والحديث يطول – ولا تكفى الصفحات الطوال لتسجيل ما تم من تغيرات فى صورة مصر أمام العالم الخارجى خلال الشهور الثلاثين الماضية ..

لكنى أستطيع أن أقول فقط إن سياسات مصر الخارجية كانت تواجه فى بداية تسلم مبارك لأمانة المسئولية .. مهاما صعبة وهى إعادة شخصية مصر الدولية إلى الظهور ، وإعادة مصر إلى مكانتها الدولية اللائقة ، وإعادة شخصية مصر العربية إلى الظهور بملامحها الأصيلة ، وإعادة شخصية مصر كدولة إسلامية رائدة .. وكدولة أساسية من دول عدم الانحياز .. وكدولة قائدة من دول أفريقيا ، وقد نجحت سياسات مصر الخارجية فى تحقيق هذه المهام الصعبة خلال وقت قصير من التوجهات الصحيحة والممارسات الحكيمة ..

ونجحت فيما هو أهم من كل ذلك .. فى إعادة الاحترام لمصر لدى المجتمع الدولى بأكمله .

وهى كلها مهام عظمى .. لم يكن الطريق إليها مفروشا بالورود .. بل كان الطريق إليها شديد الوعورة كثير المخاطر .. لكن الحكمة السياسية .. وسلامة التوجهات الأساسية وصدقها ووطنيتها قد ذللت الصعاب وتخطت الضمور وجعلت المستحيل ممكنا .

فأليس هذا هو التغيير ؟ .